شم النسيم

مكانه من تاريخ مصر القديم

قلت في مقالي المعنون «أثر الأساطير في قصة خروج بني اسرائيل» المنشور في مقتطف أكتوبر الماضي ان شم النسيم بقية عيد كان يعيده الأقدمون لهاتور في رأس السنة لذكرى الخلاص . وكان من رأيي ان بني اسرائيل بعد طردهم من مصر عيدوه في الصحراء كشأنهم من قبل وان التمثال الذي صنعوه بهذه المناسبة كان تمثال بقرة لا تمثال عجل لان هاتور صاحبة هذا العيد كان يرمز لها بالبقرة . ووعدت القراء بمقال أثبت فيه هذا الرأي والآن وقد شارفنا شم النسيم بمباهجه ومسراته أنجز لهم ما وعدت

كان أول توت وهو مبدأ السنة المصرية يحسب منذ أقدم العصور من وقت اقتران الشمس بكوكب الشعرى وكانوا يعرفونه باسم «سوذس» لموافقة شروقه لابتداء فصل الفيضان لأن الفصول عندهم كانت ثلاثة : فصل الفيضان وفصل الزراعة وفصل الحصاد. وقد عرف بالرصد ان شروقه في خط عرض عين شمس يوافق ١٩ يوليو وانما اختيرت عين شمس لذلك لانها كانت دار الحكمة ومقر عبادة الشمس وسمها ولا ريب كانت تؤخذ الارصاد لضبط أوائل السنين . الا ان سنتهم كانت تنقص ربع يوم عن السنة الحقيقية فلم تكن تبدأ في موعدها المقرر الا مرة كل ١٤٦٠ سنة وهو جامع ضرب عند أيام السنة في أربعة . وكانت المواسم والاعياد تختلف أوقاتها سنة عن أخرى . لكن عند ما كان الخطأ يتعاقب السنين يبلغ مبلغاً جسيماً حتى لتقع الاعياد في غير فصولها المقررة كان الكهنة لحرصهم على ضبط هذه الاوقات يرصدون الكوكب ويردون الأمور الى نصابها . وقد وجدت شذرة من رسالة مؤرخة في السنة المائة والعشرين من حكم الاسرة الثانية عشرة وجهها أحد رؤساء الكهنة الى مرؤوسية ينبههم فيها الى ان عيد سوثس سيوافق اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن ويطلب اليهم اعتبار هذا اليوم اول توت . وقد ضبط تاريخ هذه الرسالة بالحساب الفلكي فوجد انه يوافق سنة ١٨٨٠ قبل الميلاد

***

ظل هذا التقويم على ما به من نقص الى ان ولي الحكم بطليموس الثالث الملقب افرجيت

الاول وكان محبّ لرعية مخلصاً للدين فاقترح الكهنة عام ٢٣٨ قبل الميلاد ان ينشئوا عيداً باسمه يقام اربعة ايام تباعاً لتكريمه لقاء ما انفق على الناس والمعابد من الخيرات وقرروا اصلاح التقويم بإضافة يوم الى كل سنة رابعة لتقع الاعياد في اوقاتها المقررة

ولما دخلت مصر في حكم الرومان امر اغسطس قيصر في السنة السادسة والعشرين قبل الميلاد بتعديله بحيث تتوافق شهوره دائماً مع شهور التقويم اليولياني فجاء اول توت موافقاً لليوم التاسع والعشرين من شهر اغسطس . وقد أسخط هذا الشعب المصري فقاوم التقويم المعدل زمناً طويلاً لكن طول زمن خضوعه لحكم الاجنبي أفقده العزة القومية وأضعف فيه روح المقاومة فغلب على أمره واستتب الأمر للتقويم الجديد . الا ان الشعب وهو من أشد الشعوب محافظة على التقاليد حرص على مهرجان أول توت وظل يقيمه في موعده القديم . ومع كرور الأعوام تنكرت معارفه للناس وغاب عنهم أصله فسمي شم النسيم لوقوعه دائماً في فصل الربيع

أول ما يدهني هذا الرأي إذ كنت أقرأ أسطورة من أساطير الاولين عن رع الله الشمس ربهم الاعلى وخلاصتها ان الناس تمرّدوا على الاله وخرجوا عن طاعته فوجّه اليهم هاتور لتنتقم منهم جزاء لهم بما كفروا . فانخنت فيهم وأعملت يد الهلاك . ولما أن رأى الاله من السماء ما حلّ بالناس عفا عنهم وبادر الى خلاص البقية الباقية منهم قبل ان تفتك هاتور بهم وذلك بأنه أمر النساء ان يطحنّ الشعير ويصنعنهُ جعة وأنفذ الرسل الى جزيرة الفيلة القريبة من اسوان فحملوا من هناك ثماراً ارجوانية وقرمزية يتخذ منها عصير أحمر مسكر هو النبيذ . ثم أمر رع فرجت الجعة المتخذة من الشعير بعصير تلك الثمار فكان مزاجها شراباً أحمر بلون الدم . ثم أريق الشراب حيث وقعت المذبحة . فلما قدمت هاتور في الصباح لاستئناف المذبحة انحنت على الارض وولغت في الشراب وهي تحسب انه دم الخلائق الذي أهدرت فثقل رأسها ونامت فنجا الناس من بطشها وفتكها وتلقاء ما كان لهذا الشراب من فضل في خلاص الناس شرع لهم رع ان يشربوه كلما جاء عيد رأس السنة فريضة للذكرى

***

قرأت هذه الاسطورة فذكرتني الفريضة التي فرضها رع لذكرى الخلاص ما عليه الناس في عيد شم النسيم من عادة شرب الاشربة المتخذة من الشعير كالبوظة وهي ضرب من الجعة ولعلها هي التي تشير اليها الأسطورة والسوبيا ثم مازلت أجيل النظر في سائر التقاليد المتصلة بهذا العيد وأدمن الفكر في استنباط مراميها حتى اقتنعت انها بقايا تقاليد كانت للأقدمين في العيد الذي تحدثنا عنه الأسطورة

من الأمور التي تسترعي النظر اتصال شم النسيم بعيد القيامة الذي يعيده المسيحيون لذكرى الخلاص على كونه لا يمتُّ الى هذا العيد بسبب وليس له نظير في غير مصر . وعندي ان هذه الصلة مؤيدة لمذهبي بانه كان في الاصل يعيَّد لذكرى الخلاص وقد وصل من ثمَّ بعيد القيامة لاتفاقه معه في ذلك . ومما يؤكد هذا ان كثيراً من العادات التي تمارس في الاسبوع السابق للعيد وهو المعروف عند المسيحيين بأسبوع الآلام كعادة أكل البقول المسلوقة في ايام الاربعاء والخميس والجمعة وعادة التكحل في يوم السبت لا مدلول لها عند المسيحيين من الآثار الدينية ولا رمز فيها الى الذكرى التي يحتفلون بها . لكن اذا امتحنت هذه العادات على ضوء الاسطورة التي نحن بصددها اتضح لنا انها ترمز الى بعض حوادثها

فاما أكل البقول المسلوقة فيراد به التنويه الى ما تولى الناس من الذعر في الايام الاخيرة قبل ان يستنقذهم رع وكيف انهم خرجوا من ديارهم لا يلوون على شيء حتى لم يكن لديهم متسع من الوقت لطهي الطعام فأكلوا البقول مسلوقة ليقيموا بها اودهم . واما تكحل النساء عقب تلك الايام فاشارة الى ان عيونهن قد رمدت في الليلة السابقة من السهر حيث فضيلتها وهنَّ يطحنَّ حتى اذا كان الصباح وقد امتلأت قلوبهنَّ سكينة بما وعد الاله الناس من العفو جعلنَ الكحل لتبرأ

***

ومن العادات المستغربة في هذا العيد عادة شم البصل فكل والدة تحرص في شم النسيم أن تكر بايقاظ ابنائها لتنشقهم رائحته . ومن الاقوال المأثورة في ذلك ان من تطلع عليه شمس هذا اليوم وهو في فراشه يلازمه الخمول طوال السنة

وفي ظني ان هذه العادة ترمز الى ما جاء في الاسطورة من ان الاله امتحى الناس في هذا اليوم وجعلهم كذلك اول الايام

وسبب اتخاذ البصل لهذه الغاية كون رائحته اول ما يتنشقه الوليد مع انفاسه الاولى . ذلك انهُ بما لهُ من رائحة نفاذة قوية كان ينشق للاطفال عقب ولادتهم لتنبيههم ولا تزال هذه العادة عند الفراعنة الى هذه الايام

لما رأيت ذلك تحقق الظن عندي بأن شم النسيم يرجع في اصله الى عيد اول توت في الزمن القديم . وايقنت اذ ذاك حين نشم النسيم اننا نحيي عيداً منسيًّا ونتنسم ريح الماضي البعيد ونبدي من أنفسنا ما لم تقدر العصور على اخفائه من الأواصر التي تربطنا بالجدود

أسيوط ناشد سيفين